أبو الفتح بن جني

وأثره في اللغة العربية

عصره ، مكانته العلمية ، آثاره

— ١٠ —

٢٩ ـ الفائق :

ذكره ياقوت في ترجمته ولم أعثر عليه فيما بين يديّ من مصادر .

٣٠ ـ الفرق :

ذكره ياقوت في ترجمته ولم أعثر عليه ولا عرفت شيئاً عنه .

٣١ ـ الفصل بين الكلام الخاص والعام :

ذكره ياقوت في ترجمته وذكره ابن النديم في الفهرست مرتين ، مرة باسم (الفصل بين الكلام الخاص والكلام العام) ومرة باسم (الفرق بين الكلام الخاص والكلام العام) ولعله هو الكتاب السابق .

٣٢ ـ اللمع :

ذكره في الاجازة وقال : وكتابي اللمع في العربية وإن كان لطيفاً . وقد ذكره ابن النديم في الفهرست والبغدادي في تاريخ بغداد وابن خلكان في الوفيات [١] . وقد نقل عنه السيوطي كثيراً في الأشباه والنظائر [٢] .

(١) الفهرست ١٢٨ ، تاريخ بغداد ١١ / ٣١١ ، الوفيات ٣١٣

(٢) ج ٣ ص ٩٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن الكتاب ثلاث نسخ في خزانة برلين رقمها ٦٤٦٦/ ٦٤٦٨ ونسختان في خزانة أياصوفيا رقمها ٤٥٧٨/ ٤٥٧٩ ونسخة في خزانة علي شهيد باشا رقمها ٢٥٠١ ونسخة في خزانة لاله لي رقمها ٣٤٩١ ونسخة في دار الكتب بالقاهرة [١] وعلى الكتاب شروح كثيرة منها شرح سعيد بن المبارك بن الدهان [٢] ومنه نسخة في خزانة قليج علي باشا رقمها ٩٣٩ ، وشرح عبد الله بن الحسين أبي البقاء العكبري [٣] ومنه نسخة في المنحفة الآسيوية في لينغراد رقمها ٩١٣ وشرح تلميذه عمر بن ثابت الثمانيني ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية .

٣٣ ـ ما يحتاج اليه الكاتب من مهموز ومقصور وممدود :

ولعله الرسالة التي نشرها الأستاذ وجيه الكيلاني ضمن المجموعة سنة ١٩٢٤ والتي ذكرناها تحت رقم (١) .

٣٤ ـ ما خرج عني من تأييد التذكرة :

قال عنه في الإجازة : وكتاب ما خرج عني من تأييد التذكرة عن الشيخ أبي علي أدام الله عزه . ولم أر من أشار الى هذا الكتاب سوى أن ابن خلكان ذكر له كتاباً اسمه مختار تذكرة أبي علي الفارسي وتهذيبها فلعله هو هذا .

٣٥ ـ المحاسن في العربية :

قال عنه في الإجازة وكتابي في المحاسن في العربية وإن كان ما جرى أزال بدي عنه حتى شذ عنها ومقداره ٦٠٠ ورقة . وقد ذكره السيوطي في

---

(١) فهرس الدار ٢ / ١٥٥

(٢) هو الإمام اللغوي الأديب البغدادي المشهور (ـ ٥٦٩) وله كتب جليلة منها (العروض) و (سرقات المتنبي) و (زهر الرياض) في سبع مجلدات و (الغرة في شرح لمع ابن جني) . انظر تعريف الخلف ٢ / ١٥٣

(٣) هو العالم الأديب الفقيه المفسر النحيسوب العراقي (ـ ٦١٦) وله كتب عديدة أجلها (إعراب القرآن) انظر ترجمته في نكت الهميان ص ١٧٨ ووفيات ابن خلكان ، وبغية الوعاة للسيوطي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

البغية وسماه المحاسن العربية وذكره طاش كبري زاده وسماه محاسن العربية ولم أعثر عليه فيما بين يدي من مصادر .

٣٦ ـ المحتسب في القراءات الشاذة :

لم يذكره ابن جني في إجازته وإنما ذكره ياقوت في ترجمته ، وكتب عنه المرحوم أستاذنا المستشرق برجستراسر (G. Bergstræsser) مقالة في مجلة المجمع العلمي في بافاريا (Bayer A. W. 1933) [1] وهو في هذه المقالة يذكر أن أكثر هذا الكتاب مأخوذ من كتاب ابن مجاهد [2] في الشواذ مع بعض زيادات وأن ابن جني ألف كتابه سنة ٣٨٤ أي بعد وفاة ابن مجاهد بمدة . فلا شك في أنه نقل منه . ومن الكتاب نسخة في مكتبة راغب أفندي في استامبول رقمها ١٣٠ ، ونسخة في مكتبة بانكي بور رقمها ١٢١٣ ونسخة في دار الكتب المصرية رقمها ٧٨ قراءات . وقيل لي إن في مكتبة الحرم المكي نسخة بقطع كبير .

٣٧ ـ مختار الأراجيز :

ذكره ياقوت في ترجمته وذكره بروكلمان في كتبه المفقودة ولم أعثر عليه ولا رأيت من أشار اليه من المتأخرين .

٣٨ ـ مختصر العروض والقوافي :

ذكره في الاجازة وذكره ابن النديم في الفهرست وقال ابن خلكان في الوفيات

---

(١) إنظر مجلة المستشرقين الألمان (ZDMG) 1901, 210

(٢) هو الإمام أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس القاريء البغدادي المشهور (ـ ٣٢٤) ، ألف عدة كتب في قراءات القرآن منها (كتاب القراءات الكبير) و (قراءة ابن كثير) و (قراءة أبي عمرو بن العلاء) و (قراءة عاصم) و (قراءة نافع) و (قراءة حمزة) و (قراء الكسائي) و (قراءة النبي ﷺ) ، وله (القراءات الشاذة) انظر الفهرست لابن النديم ١ / ٣١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

حين عدد كتبه : ومختصر في العروض ، ومختصر في القوافي ، ولعل كلام ابن خلكان هو الصواب فإن في خزانة برلين كتاباً له في العروض رقمه ٧١٠٨ ومنه نسخة في فينا : ٢٢٢ ، ونسخة في لاله‌لى : ١٩٨٣ . ومن مختصره في القوافي نسخة في الاسكوريال رقمها ٤٤٢ . وأخرى في لاله‌لى رقمها ٣٧٤٠ .

٣٩ ـ مدد الأصوات :

لم يذكره في الاجازة بل ذكره ياقوت في ترجمته وقال عنه : هو رسالة في مدد الأصوات ومقادير المدّات كتبها الى أبي اسحق ابراهيم بن أحمد الطبري مقدارها ست عشرة ورقة بخط ولده عالٍ ولم يذكره بروكلمان في الكتب المفقودة ولا عثرت عليه فيما عندي من المصادر .

٤٠ ـ المذكر والمؤنث :

لم يذكره في الاجازة بل ذكره ياقوت في ترجمته وقد طبع بعناية الأستاذ المستشرق (ريشر Rescher) في المجلة (M. O.) ج ٨ من ص١٩٣ الى ص ٢٠٢

٤١ ـ شرح المذكر والمؤنث ليعقوب :

ألف يعقوب بن اسحق السكيت كتاباً جليلاً في (المذكر والمؤنث) وقد اهتم به العلماء منذ عهد بعيد فشرحوه وعكفوا عليه ومنهم ابن جني وقد ذكره في الاجازة فقال : « وما بدأت بعمله من كتاب تفسير المذكر والمؤنث ليعقوب أيضاً أعان الله على إتمامه » ولم أجد من ذكره له في كتبه ويظهر أنه لم يتمه أو أنه قد تم ولكنه فقد .

٤٢ ـ المذكرات :

هي مذكرات عن حدودٍ ومعاني وفوائد كتبها أبو الفتح عن الإمام ثعلب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

النحوي وهي ضمن المجموعة التي لمحمد بن ابراهيم ابن النحاس الحلبي بهاء الدين (ـ ٦٩٨) [1] من محفوظات مكتبة الفاتيكان بايطاليا .

٤٣ ـ المعاني المجردة :

ذكره ياقوت في ترجمته ولم أعثر عليه فيما لدي من مظان .

٤٤ ـ المغرب :

لم يذكره في الإجازة وإنما ذكره ياقوت وقال عنه (كتاب المغرب في شرح القوافي) . ونقل عنه البغدادي وابن سيده في المخصص وذكره بروكلمان في كتبه المفقودة وقال : إن لابن جني أيضاً كتاباً ثانياً اسمه المعرب (بالعين) ذكره في الخصائص ١ / ٤٩٢ . قلت : وهذا خطأ من بروكلمان لأنه ليس لابن جني كتاب اسمه (المعرب) وإنما له المغرب في تفسير قوافي أبي الحسن كما ذكر ذلك في الخصائص ١ / ٨٦ ولعل هذا جاءه من خطأ ناشري الخصائص في الطبعة الأولى .

٤٥ ـ المقتضب :

ذكره في الاجازة فقال : « وكتابي في اسم المفعول المعتل العين من الثلاثي على إغرابه في معناه واسمه المقتضب » وذكره ابن خلكان باسم (المقتضب في معتل العين) وذكره الحاج خليفة باسم (المقتضب من كلام العرب في معتل العين) وقد طبعه المستشرق (Pröbster) سنة ١٩٣٠ في ليبزيغ باسم (المقتصب) . وطبع في مصر بعناية المرحوم الأستاذ وجيه فارس الكيلاني ضمن المجموعة التي تحدثنا عنها فيما سلف .

---

(١) يترجمه شيخنا محمد راغب الطباخ في تاريخ حلب ٤ / ٥٣٣ ويذكر أنه كان شيخ الديار المصرية في علم اللسان والعربية ، وانه قد تخرج به جماعة من الأئمة وكان من الأذكياء وله خبرة بالمنطق وكتب الخط المنسوب وكان معروفاً بحل المشكلات ، واقتنى كتباً نفيسة . وله ترجمة في بغية الوعاة للسيوطي وفوات الوفيات لابن شاكر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٤٦ ـ مقدمات أبواب التصريف :

لم يذكره في الاجازة وإنما ذكره ياقوت ، وهو غير التصريف الملوكي في الغالب ولم أعثر عليه فيما بين يدي من مصادر .

٤٧ ـ من نسب الى أمه من الشعراء :

ألف الإمام محمد بن حبيب بن أمية (ـ ٢٤٥) [١] عالم الأنساب المعروف كتاباً عنوانه (من نسب الى أمه من الشعراء) وهو من الكتب الطريفة ، ورواه عنه ابن جني ، وأضاف عليه بعض تعليقات ، ووجدت نسختين بدار الكتب المصرية رقمها ٥٧ ش ، و ١٢٢ مجاميع . ونسخة في مكتبة عارف حكمة بك بالمدينة ، وقد طبع كتاب ابن حبيب مؤخراً .

٤٨ ـ المهذب :

ذكره ابن خلكان في ترجمته ولم أهتد اليه ولا عرفت الموضوع الذي بحثه فيه .

٤٩ ـ النقض على ابن وكيع [٢] :

ذكره ياقوت في ترجمته وسماه (النقض على ابن وكيع في شعر المتنبي وتخطئته) ولم أعثر عليه فيما رأيت من فهارس .

٥٠ ـ النوادر :

وسماه في الإجازة (النوادر الممتعة في العربية) وحجمه ألف ورقة وقد شذ أصله عني فان وقعا كلاهما ـ أي النوادر والمحاسن ـ أو شيء منهما فهو لاحق بما أجزت . قلت : ويظهر أن هذين الكتابين قد فقدا أيام محنة ابن جني . وقد ذكره في الخصائص ١/٣٣٦ من الطبعة الأولى . ولم أهتد اليه .

(١) انظر ترجمته وأخباره في بغية الوعاة ٢٩ ومعجم الأدباء لياقوت .
(٢) ألف الإمام الأديب الشاعر أبو محمد الحسن بن علي الضبي التنيسي العراقي المصري (ـ ٣٩٣) كتاباً لطيفاً عدد فيه سرقات أبي الطيب المتنبي وسماه (المنصف) فجاء صاحبنا وانتقد، وخطأه انظر ترجمة ابن وكيع في وفيات ابن خلكان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٥١ ـ الوقف والابتداء :

ذكره ابن النديم في الفهرست وياقوت في ترجمته ولم أر من أشار الى وجوده أو نقل عنه في المصادر التي عندي .

* * *

(أما بعد) فهذه فهرست كتب ابن جني وهي شاهدة على علمه وفضله فما أحرانا أن ننصرف إلى إبراز الموجود منها ونشره . وليس هذا الذي رأيناه هو كل ما أراد ابن جني أن يكتبه فقد كان يفكر في تأليف كتب أخرى لو فسح له في الأجل، فقد ذكر في كتابه الخصائص[1] (كتاب القلب والابدال) لابن السكيت وقال إنه يريد أن يضع عليه شرحاً ويظهر أنه لم يفعل أو انه فعل وضاع الكتاب . وقال في سر الصناعة[2] : انه عازم على شرح كتاب الخصائص . وقال فيه أيضاً[3] : انه كان ينوي تأليف كتاب يميز فيه الأفعال المشهورة والواوية واليائية ، وقال ياقوت في ترجمته[4] : انه قال « إن وجدت فسحة وأمكن الوقت عملت باذن الله تعالى كتاباً أذكر فيه جميع المعتلات في كلام العرب وأميز ذوات الهمزة من ذوات الواو والياء وأعطي كل جزء منها حظه من القول مستقصى إن شاء » . فهذا يدلك على ما كانت تنطوي عليه نفسه الكبيرة من الإكثار في التأليف خدمة هذه اللغة وآثارها .

سر صناعة الإعراب :

عنيت بهذا الكتاب عناية خاصة منذ نيف وعشرة أعوام فحققته ودققت فيه لنشره ، وبعثت به الى أستاذي ابراهيم مصطفى ليرى رأيه فيه قبل نشره ،

(١) ١ / ٤٨٢ من الطبعة الأولى .
(٢) ص ٦٠٨ من مخطوطتنا .
(٣) ص ٤٨٢ من مخطوطتنا .
(٤) الوفيات طبعة مرجليوث ٧ : ٢٥٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فاستحسن الذي صنعت ، وأعاده إلي ، ولكن الظروف السياسية التي اضطرتني أن أغادر البلاد منذ عام ١٩٥٠ الى هذه الأيام منعتني من إتمام عملي ، فلم أر بداً من إرساله الى أستاذي المرحوم أحمد أمين ليقوم هو بنشره في (دار التأليف والترجمة والنشر) ولكن وفاته حالت دون ذلك فبقي الكتاب عنده إلى أن قام بعض أهل الفضل بنشره أخيراً ومن بينهم أستاذي ابراهيم مصطفى [1] .

والكتاب من كتب ابن جني الضخمة ، وصفه أبو الفتح في الاجازة التي كتبها للشيخ أبي عبد الله بن نصر فقال : « وكتابي سر الصناعة وهو ستمائة ورقة » وقال في مقدمة هذا الكتاب : « أضع كتاباً يشتمل على جميع أحكام حروف المعجم وأحوال كل حرف منها وكيف مواقعه في كلام العرب وأن أتقصى القول فيه وأشبعه وأوكده ... وأذكر فيه أحوال هذه الحروف في مخارجها ومدارجها وانقسام أصنافها وأحكام مجهورها ومهموسها وشديدها ورخوها وصحيحها ومعتلها ومنشربها ومكررها ومنحرفها ومستعليها ومنخفضها الى غير ذلك من أجناسها ، وأذكر فرق ما بين الحرف والحركة وأين محل الحركة من الحرف هل هي معه أو قبله أو بعده ، وأذكر أيضاً الحروف التي هي فروع مستحسنة والحروف التي هي فروع مستقبحة ، والحركات التي هي متولدة عن الحركات كتفرع الحروف عن الحروف ، وأذكر ما كان من الحروف في حال سكونه ، له مخرج ما فاذا حرّك أفلفته الحركة وأزالته عن محله في حال سكونه وأذكر أيضاً أحوال هذه الحروف في اشكالها والغرض في وضع واضعها وكيف ألفاظها ما دامت أصواتاً متقطعة ثم كيف ألفاظها اذا صارت أسماءً معربة ، وما الذي يتوالى فيه اعلالان بعد نقله مما يبقى بعد ذلك من الصحة على قديم حاله وما يمكن تركيبه ومجاورته من هذه الحروف وما لا يمكن وما يحسن وما يقبح فيه ما ذكرنا ، ثم أفرد فيما بعد لكل

(١) طبع الجزء الأول منه في مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر في سبتمبر سنة ١٩٥٤ بتحقيق الأساتذة مصطفى السقا ، ومحمد الزفزاف ، وأستاذنا ابراهيم مصطفى ، وعبد الله الأمين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

حرف منها باباً اغترق فيه ذكر أحواله وتصرفه في الكلام من أصليته وزيادته وصحته وعلته وقلبه الى غيره وقلب غيره اليه ... »

هذه خطبة الكتاب ؛ وقد فعل ابن جني في كتابه ما ذكره في خطبته تماماً فقدم بين يدي الكتاب فصلاً في ستين صحيفة ذكر فيه أحوال الحروف في مخارجها ومدارجها وذكر الحركات وأنواعها ومواضعها ، وذكر الحروف المستحسنة والحروف القبيحة والحركات وأنواعها . وهو فصل جد ممتع بل هو من أمتع ما كتب في هذا الموضوع لعمقه ودقة آرائه ، ثم ابتدأ بباب الهمزة فذكر أنها حرف مجهور وانه يكون في الكلام أصلاً وبدلاً وزائداً وذكر مواضع كل ، وأطال في ذلك وأسهب وفصّل ، ثم انتقل الى حرف الباء فالتاء وهكذا حتى أتى على حروف المعجم كلها ثم ختم الكتاب بفصل في تصريف حروف المعجم واشتقاق أسمائها وعقب على ذلك بفصل عن حروف الحلق وعن حكم اجتماعها في كلمة واحدة وأتم الكتاب بفصل عن فعل الأمر اذا اشتق من حروف المعجم وهو فصل تمرين على معرفة الأحكام الصرفية ، فالكتاب اذن يبحث في علم الأصوات وجرس الحروف وصفاتها بحثاً تعرض له علماء البصرة والكوفة من قبل تعرضاً بسيطاً فجاء هو وتعمق فيه تعمقاً لم يخطر ببال علماء المصرين .

وقد ذكر في مقدمة هذا الكتاب أنه ألفه لرجل ذي مكانة رفيعة في عصره اقترح عليه تأليفه ، ولكن وجدت في طرة النسخة المحفوظة بخزانة شهيد علي باشا في الآستانة (كتاب سر صناعة الإعراب صنعة الشيخ أبي الفتح ... الى أبي بكر عبد الواحد بن عرس بن فهد بن أحمد الأزدي) فعرفت أن ابن جني ألفه لهذا النبيل الازدي الذي ينتسب اليه نسبة الولاء ، وقد كان بنو فهد هؤلاء من سراة الموصليين في القرنين الثالث والرابع [1] .

(١) من هؤلاء رأسهم فهد بن أحمد الأزدي كان من الأعيان النبلاء ذكره ابن الأثير وأثنى عليه وقال انه مات سنة ٢٨٧ ، ومنهم محمد بن سليمان بن فهد كاتب سيف الدولة الحمداني ذكره ابن العديم في زبدة الحلب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد ألف ابن جني كتابه هذا قبل كتاب الخصائص ونقل عنه نقولاً كثيرة [١] وهذان الكتابان هما بحق أعظم ما كتب ابن جني في بحوث اللغة وعلم الأصوات فقد كتب كتابه الأول ـ سر الصناعة ـ [٢] وبحث فيه عن المفردات العربية وحروفها وعللها وأحكامها في القلب والاعلان والابدال والأصلية والزيادة وما الى ذلك مما سبق بيانه فلما أتم كتابه هذا ألف كتابه الثاني ـ الخصائص ـ فذكر فيه خصائص اللغة العربية في الجملة وأسرارها في تراكيبها وعللها وبين فيه « الأدلة على ما أودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة ونيطت به من علائق الاتقان والصنعة [٣] » .

وقد دفعه إلى تأليف هذين الكتابين ما رآه من اختلاف بين علماء المدرستين الكوفة والبصرة وما أدّى اليه هذا الاختلاف من فوضى واضطراب ، فقد رآهم بحثوا في المفردات وألموا بذلك بعض الإلمام كالذي فعله المازني في تصريفه ، أما البحث في العلل وأسرار هذه اللغة فإن أحداً منهم لم يتعرض اليه ولم يفكر في عمل أصول للنحو على مذهب أصول الكلاميين [٤] . رأى ابن جني ذلك فعزم على أن يسدّ هذا النقص فألف كتابيه وأبدع فيهما ما شاء له الإبداع ، وبخاصة كتاب (سر الصناعة) حتى إنه هو نفسه كان كثيراً ما يعجب من نفسه كيف استطاعت أن تهتدي الى ما اهتدت اليه ، استمع اليه يقول بعد أن ذكر نكتة لطيفة في أسرار اسم الموصول : « فاعرف هذه النكت فقد استودعتها

---

(١) الخصائص ١ / ٣١

(٢) اسم الكتاب الكامل (سر صناعة الإعراب) ولكن هذه التسمية لا تنطبق تماماً على ما جاء فيه من بحوث فانه لم يتعرض للاعراب إلا عرضاً ، لأن الكتاب خاص ببحث حروف المعجم من الناحية الصوتية والتراكيب اللغوية ، ولو أن المصنف رحمه الله اقتصر فسمى كتابه « سر الصناعة » كما اشتهر عند بعض العلماء لكان أفضل ، ولعل ابن جني كان يرى ان الإعراب اسم يشمل الإعراب وغيره ، وبذلك جوز لنفسه إطلاق هذه التسمية على كتابه الواسع .

(٣) الخصائص ١ / ٢ ـ ٣

(٤) انظر الخصائص ١ / ٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ما لا يكاد ينطوي عليه كتاب للُّغة »[٣] ، وقال في موضع آخر وقد أجاد في البحث عن (ايّا) وأحكامها وأصولها وتصرفها : « ... فهذه أحكام تصريف هذه الكلمة ، ولست أعرف واحداً من أصحابنا خاض فيها الى ههنا أو قارب هذا الموضع بل رأيت أبا علي وقد نشم فيها شيئاً من القول يسيراً لم يستوف في الحال والاطار بهذه الجملة وانه بحمد الله تعالى والاعتراف له الشيخ الفاضل والأستاذ المجلل ولو لم يتضمن هذا الكتاب من الكلام الدقيق غير هذه المسألة لكانت بحمد الله جمالاً ومحسنة حاله »[١] فأنت ترى شدة إعجابه بما اهتدى اليه في كتابه القيم هذا من بحوث . والحق ان كتابي السر والخصائص قد ملئا نكتاً صرفية ولغوية وفيلولوجية ذات خطر . وبخاصة سر الصناعة الذي بحث فيه عن حروف المعجم وترتيبها ، وأسرارها ، ومخارجها ، وتشريح تلك المخارج تشريحاً دقيقاً ، وبين ما يعرض لكل صوت في بنية الكلمة من تغير يؤدي الى الاعلال أو الابدال أو الادغام . وقد لاقى هذا الكتابان ما يستحقان من التقدير فإنك لا تكاد تجد بعدهما كتاباً في القراءات أو التجويد أو البلاغة أو اللغة أو التصريف أو النحو إلا وهو مملوء بالنقول عنهما ويكاد يكون قول ابن جني فيهما قولا لا يجادل فيه ، على أن كثيرين من العلماء كانوا يغيرون على كتبه وينقلون منها الفصول ولا يشيرون الى ذلك[٢] .

وكتاب سر الصناعة يدلنا على أشياء أخرى كان يتصف بها مؤلفه ؛ من ذلك خلقه العلمي الشريف فقد كان لا ينقل رأياً لغيره إلاّ نسبه إليه ولو كان ذلك رأياً تافهاً ، ولنضرب على ذلك مثالاً واحداً فقد ذكر حكماً للفاء وتصرفها في الكلام نقله عن أستاذه أبي علي فقال : « فاعرفه فإنه لطيف وهو رأي أبي علي ومذهبه وعنه علقت فاكتبه ههنا وإن اختلفت الألفاظ فان المعاني متفقة »[٣] ؛ ومن ذلك

(١) سر الصناعة : ٢٨٠ من مخطوطتنا
(٢) سر الصناعة ص ٥٣٥ من مخطوطتنا .
(٣) انظر هامش ص ٣٤٩ و ص ٤٥٩
(٤) ص ٢٠٠ من مخطوطتنا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ان هذا الكتاب يدلنا على ثقافة واسعة واطلاع كثير على ما ألف الأقدمون في الموضوع فهو يذكر لنا تصريف المازني كثيراً وانه قرأه على أبي علي وأفاد منه فهو معترف شاكر [١] . ويذكر أيضاً أنه قرأ نوادر أبي زيد الأنصاري في اللغة على أبي علي أيضاً [٢] . ويذكر أيضاً أنه قرأ كتاب سيبويه عليه [٣] وقرأ كتاب ابن السكيت [٤] وأفاد من كل أولئك في بحوثه وتكوين آرائه ، فهو لا يفتأ يذكر هذه الكتب ويثني على أصحابها إذا وجدفيها صواباً أو ينقدها إذا وقع على خطأ .

أما أسلوبه في كتابه هذا فهو ـ كما مرّ ـ الأسلوب العلمي المتين ؛ يصوغ أفكاره بلغة رفيعة هي أرقى لغة كتب فيها العلم ، ليست كلغة سيبويه في جفافها ؛ ولا هي لغة المازني في اختصارها وإنما هي لغة سهلة رفيعة متبسطة منقحة محببة ، ثم إنه كثيراً ما كان يمزج كتبه ـ على نمط طريقة الجاحظ ـ باستطرادات أدبية وتاريخية ذات خطر واليك مثالاً لطيفاً على ذلك : ذكر في ختام فصل كتبه عن المعتلات أن شيخه أبا علي ذكر له أن بعض إخوانه بفارس سأله إملاء شيء من ذلك فأملى منه صدراً كثيراً وتقصى القول فيه وأنه فقده في جملة ما فقده وأصيب به من كتبه وحدثني أبو علي انه وقع حريق بمدينة السلام فذهب به جميع علم البصريين وقال كنت كتبت ذلك كله بخطي فقرأته على أصحابنا فلم أجد من الصندوق الذي احترق شيئاً البتة إلا نصف كتاب الطلاق فسألته عن سلوته وعزائه عن ذلك فنظر إلي متعجباً ثم قال : بقيت شهرين لا أكلم أحداً حزناً وهماً وانحدرت الى البصرة لغلبة الفكر عليّ وأقمت مدة ذاهلاً متحيراً [٥] .

هذه طرفة من الطرف الأدبية الممتعة الكثيرة التي تتخلل بحوث التصريف في سر الصناعة . والناحية العظيمة في هذا الكتاب ليست في أسلوبه الأدبي الرفيع

(١) ص ٨٤ و ٢٦٧ من مخطوطتنا .
(٢) ص ٥٦ ، ٢٨٩ ، ٤٢٢ من مخطوطتنا .
(٣) سر الصناعة ص ٤٥٥ من مخطوطتنا .
(٤) ص ٤٣٨ من سر الصناعة .
(٥) ص ٢٨٤ من مخطوطتنا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولا فيما تضمنه من نكت ذات قيمة في بحوث فقه اللغة وأسراره ، وإنما هي فيما ابتدعه ابن جني من نظريات لم يسبق اليها ، وعدم تقيّده بمذهب (من بصري أو كوفي أو بغدادي) فهو ينتقد الجميع إذا خالفوا الصواب ويقول إن الحق أحق أن يتبع أين حل وحيث صقع .

وما أحب أن أطيل البحث في هذه النقطة فالكتاب بين أيدينا وقد سهل الله نشره ويستطيع المرء أن يقرأ أيّ فصل شاء ليتحقق ما أقوله .

ثم إن ابن جني في آرائه العلمية ونظرياته لا يكتفي بالاعتماد على الكتب والبحوث السابقة والأحكام العقلية فقط بل إنه كان يعتمد على مصدر ذي قيمة في بحوث اللغة ألا وهو مشافهة فصحاء الأعراب ذوي السليقة الصحيحة ، وهو في كتابه هذا وكتبه الأخرى التي رأيناها كثيراً ما يحدثنا عن مشافهاته ومناقشاته لهؤلاء الفصحاء من أعراب البادية ولا نحب أن نطيل في ذكر الشواهد فهي كثيرة في كتبه .

وابن جني أيضاً حينما يرى مسألة من مسائل النحو واللغة تعرض اليها النحاة القدماء ولم يتموها ، يعمد هو اليها فيقتلها بحثاً وتمحيصاً ويتمم ما أهملوه كالذي يحدثنا عما فعله في كلام سيبويه من عدم استعمال العرب لكلمة (وعوت) استثقالاً لاجتماع واوين ؛ فيجيء ابن جني الى المسألة ويدرسها درساً مفصلاً يقضي على كل وهن تتطرق اليه [1] . ويحاول ابن جني أن يظهر في سر الصناعة ـ والخصائص أيضاً ـ بمظهر الفيلسوف الذي يريد أن يجعل للنحو والصرف أصولاً كأصول الكلام وقد أعاد وأبدأ في هذا الأمر كما أشرنا الى هذا سابقاً ؛ فالدليل عنده هو قبل كل شيء ، وإذا وجد الدليل الصحيح صحت المسألة « ألا ترى أن الدلالة إذا قامت على الشيء فسبيله أن يمضي فيه ولا يلتفت الى خلاف ولا وفاق وان سبيلك اذا صحت لك الدلالة أن تتعجب من عدول من عدل عن القول

(١) سر الصناعة ص ٤٧٢ من مخطوطتنا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

به ولا تستوحش أنت من مخالفته إذا ثبتت العدالة بضد مذهبه »[١] فليس شيء أكبر من الدليل الصحيح ولا قيمة لما عداه ولو كان قول سيبويه أو المازني على شدة احترامه لها وإكباره لآرائهما . ولهذا نجد حملاته قوية على (كتاب العين) وإن كان صاحبه الإمام الخليل لكثرة ما فيه من خطل واضطراب[٢] .

والحق ان ابن جني ـ رحمة الله عليه ـ كان عالماً كل العالم ، ولا يرهب في الحق أحداً ، ولا يخشى في العلم كبيراً ، وهو في القرن الرابع قد بذّ كل من جاء بعده . واننا لا نكاد نعرف إماماً من أئمة العربية في هذا القرن أو القرون التي تلته يشبهه في سعة علمه ، واتساع أفقه ، وبراعة أسلوبه ، وحسن مناقشته ، ولئن سبقه في القرنين الثاني والثالث أئمة من الفحول أمثال الخليل بن أحمد وسيبويه وأبي بكر بن السراج وأبي عثمان المازني وغيرهم فإنه قد كان المجلى عليهم جميعاً في بحوثه التي كانت أساساً لعلوم القراءات والبلاغة والنحو والتصريف واللغة والنقد .

الدكتور محمد أسعد طلس

(١) سر الصناعة : ٢٥١ – ٢٥٢ من مخطوطتنا .
(٢) سر الصناعة : ٤٤٩ من مخطوطتنا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net